الروايات القرآنية وروايات التوراة

لمحة عامة

يجد قارئ القرآن عدداً مهماً من الموضوعات عرضتها التوراة . هى قبل كل شيء روايات خاصة بالأنبياء : نوح وإبراهيم وإيليا ويونس وأيوب وموسى وبملوك إسرائيل طالوت وداود وسليمان ، ولا نذكر إلا الروايات الرئيسية المشتركة ولنستبعد ما لا يتعدى حدود الإشارة العابرة : ثم تأتى بعد ذلك بشكل نوعى روايات لأحداث كبرى تدخلت الخوارق فى مجراها : هناك مثلاً خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان والطوفان وخروج موسى . ثم أخيراً هناك كل ما له صلة بالمسيح وأمه مريم وذلك فى إطار العهد الجديد .

ما هى التأملات التى يمكن أن توحى بها هذه الموضوعات المعالجة فى الكتب المقدسة فى ارتباطها بالمعارف الحديثة التى قد تكتسبها خارج إطار النصوص المقدسة ؟

موازنة بين القرآن والأناجيل والمعارف الحديثة

فيما يختص بالموازنة بين القرآن والأناجيل يجب أولاً أن نلاحظ أنه ليس هناك أى موضوع من موضوعات الأناجيل قد أثار انتقادات من وجهة النظر العلمية دون أن نجده فى القرآن – وقد أشرنا إليها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

والمسيح فى القرآن موضوع إشارات عديدة . منها – على سبيل المثال – إعلان ميلاد مريم إلى أبيها ، وإعلان معجزة ميلاد المسيح لمريم ، وطبيعة المسيح ، فهو نبى يحتل المكانة الأولى من بين كل الأنبياء ، وصفته كمسيح ، والوحى الذى توجه به للبشر مؤكداً ومعدلاً التوراة ، وتبشيره ، وتلامذته الحواريون والمعجزات وصعوده الأخير إلى جانب الله ، ودوره فى اليوم الآخر إلخ . . .

إن سورة آل عمران – ٣ والسورة ١٩ (التى تحمل اسم مريم) تخصص فقرات طويلة لأسرة المسيح . وهما ترويان مولد أمه ، مريم ، وصباها ، وإعلانها بأمومتها الخارقة . والمسيح يسمى دائماً فى القرآن «ابن مريم» . والقرآن يعطى نسب المسيح من جهة أمه

أساساً وذلك أمر منطقى تماماً إذ ليس للمسيح أب بيولوجى . وهنا ينفصل القرآن عن إنجيلى متى ولوقا اللذين يعطيان للمسيح ، كما رأينا ، نسبين من جهة الذكور وهى بالإضافة إلى ذلك ، مختلفة .

إن القرآن يضع المسيح ، من خلال نسب أمه ، وفى سلسلة نوح وإبراهيم وأبى مريم (ويسمى فى القرآن عمران)

* سورة آل عمران ٣ – الآيتان ٣٣ و ٣٤ :

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

المسيح إذن سليل نوح وإبراهيم من أمه مريم ومن أبى هذه أى عمران . ولا يجد قارئ القرآن أخطاء فى الأسماء كتلك التى يجدها فى الأناجيل ونعنى الأخطاء الخاصة بأسلاف المسيح واستحالات الأنساب فى العهد القديم التى درسناها فى الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب .

ومرة أخرى تفرض الموضوعية أن نشير إلى ادعاء هؤلاء الذين يقولون ، بلا أى أساس ، إن محمداً ﷺ ، مؤلف القرآن ، قد نقل كثيراً من التوراة . ولوكان ذلك حقًّا ، لتساءلنا من الذى دفعه أو ما الحجة التى أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح وبإدخال تصحيح فى القرآن يضع نصه بعيداً عن أى مرمى نقدى تثيره المعارف الحديثة ، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه ؟

موازنة بين القرآن والعهد القديم والمعارف الحديثة

هناك فيما يخص العهد القديم بعض جوانب من هذه الموازنة قد عالجناه . فعلى سبيل المثال عولج خلق العالم فى دراسة نقدية فى الجزء الخاص بالعهد القديم من هذا الكتاب ، كما درس هذا الموضوع فى الرواية التى يعطيها القرآن . وقد قمنا ببعض المقارنات : ولا داعى للرجوع إلى هذا الموضوع .

إن المعارف التاريخية الحديثة ، فيما يبدو ، شديدة الغموض ومعطيات علم الآثار على قدر من الفقر بحيث لا يمكن إقامة موازنات على ضوء المعارف الحديثة فيما يختص بالمشاكل المتعلقة بملوك إسرائيل ، وهى موضوعات روايات مشتركة بين القرآن والتوراة .

بالنسبة للأنبياء ، فهذه موضوعات يمكن أو لا يمكن التعرض لها بالاستعانة بالمعطيات الحديثة بقدر ما للأحداث المحكية (أوبقدر ما ليس لها) ترجمة تاريخية تركت آثاراً استطاعت أن تصل إلينا .

وهناك موضوعان لهما روايات مشتركة بين القرآن والتوراة وهما جديران بلفت انتباهنا ويستحقان الدراسة على ضوء معارف عصرنا . وهذان الموضوعان هما :

- الطوفان
- خروج موسى من مصر

والأول مهم لأنه لم يترك فى تاريخ الحضارات الآثار التى تضمنتها رواية التوراة ، على حين أن المعطيات الحديثة لا تثير أى نقد بالنسبة إلى رواية القرآن .

أما الثانى فهو مهم لأن رواية القرآن ورواية التوراة تبدوان متكاملتين فى خطوطهما العريضة ولأن المعطيات الحديثة ، على ما يبدو ، تأتى لكل من الروايتين بدعم تاريخى ملحوظ .

الطوفان

تذكرة برواية التوراة والانتقادات التى تثيرها

قادت دراسة رواية الطوفان على حسب العهد القديم فى الجزء الأول من هذا الكتاب إلى الملاحظات التالية :

ليس فى التوراة رواية واحدة فقط عن الطوفان بل هناك روايتان ولكنهما حررتا فى عصور مختلفة :

– الرواية اليهودية التى ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد .

– الرواية الكهنوتية التىترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد والتى أخذت هذا الاسم لأنها مؤلف لكهنة ذلك العصر .

ولا تأتى هاتان الروايتان كل إلى جانب الأخرى وإنما تتشابكان وتتداخل عناصر إحداهما فى عناصر الأخرى وتتعاقب فقرات كل مصدر بالتبادل مع فقرات المصدر الآخر . وتشير جيداً تعليقات ترجمة سفر التكوين للأب ديفو R.P. de Vaux ، الأستاذ بمدرسة الكتاب المقدس بالقدس ، إلى هذا التوزيع للفقرات بين المصدرين : فالرواية تبدأ وتنتهى بفكرة يهوية : وهناك بالإجمال ١٠ فقرات يهوية ، وبين كل فقرة منها توجد فقرة من النص الكهنوتى (أى بالإجمال ٩ فقرات كهنوتية) . هذه النصوص متعددة الأصول ولا تتمتع بالوضوح إلا من حيث تعاقب الأحداث ، فبين النصين توجد تناقضات صارخة . ويقول الأب ديفو : «إنهما حكايتان للطوفان تختلف فيهما العوامل التى أدت إلى الطوفان ، كما يختلف زمن وقوعه ويختلف عدد الحيوانات التى شحنها نوح بالسفينة»

إن رواية الطوفان فى العهد القديم غير مقبولة فى إطارها العام وذلك لسببين يتضحان على ضوء المعارف الحديثة :

(ا) يعطى العهد القديم للطوفان طابعاً عالمياً .

(ب) وعلى حين لا تعطى فقرات المصدر اليهوى للطوفان تاريخاً ، تحدد الرواية

الكهنوتية زمن الطوفان فى عصر لم يكن من الممكن أن تقع به كارثة من هذا النوع .

والحجج التى يستند إليها هذا الحكم هى ما يلى :

تحدد الرواية الكهنوتية أن الطوفان قد حدث عندما كان عمر نوح ٦٠٠ عام . غير أنه من المعروف ، بحسب الأنساب المذكورة فى الإصحاح الخامس من سفر التكوين أن نوحاً قد ولد بعد آدم بـ ١٠٥٦ عاماً (وهذه الأنساب كهنوتية المصدر هى أيضاً وقد ذكرناها فى الجزء الأول من هذا الكتاب) . وينتج عن ذلك أن الطوفان قد وقع بعد ١٦٥٦ عاماً من خلق آدم . ومن ناحية أخرى فجدول نسب إبراهيم الذى يعطيه سفر التكوين (١١ ، ١٠ – ٣٢) ، على حسب نفس المصدر ، يسمح بتقدير أن إبراهيم قد ولد بعد الطوفان ب ٢٩٢ عاماً . ولما كنا نعرف أن إبراهيم كان يعيش فى حوالى ١٨٥٠ ق . م . فإن زمن الطوفان يتحدد إذن ، على حسب التوراة ، ب ٢١ أو ٢٢ قرناً قبل المسيح . وهذا الحساب يتفق بمنتهى الدقة مع إشارات كتب التوراة القديمة التى تحتل فيها هذه التحديدات التاريخية المتسلسلة مكاناً طيباً قبل نص التوراة ، وذلك فى عصر كان الافتقاد إلى المعلومات الإنسانية فى هذا الموضوع يجعل معطيات هذا التسلسل التاريخى للأحداث مقبولة بلا جدل لدى قرائها (١) – حيث إنه لم يكن هناك أيضاً أى حجج مضادة .

كيف يمكن اليوم تصور أن كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الأرض (باستثناء ركاب السفينة) فى القرن ٢١ أو ٢٢ ق . م . ؟ ففى ذلك العصر كانت هناك على نقاط عدة من الأرض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها إلى الأجيال التالية . وبالنسبة لمصر ، على سبيل المثال ، كان ذلك فى الفترة الوسطى التى تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى . وبالنظر إلى ما نعرف عن تاريخ هذا العصر فإنه يكون مضحكاً القول بأن الطوفان قد دمر فى ذلك العصر كل الحضارات .

وعلى ذلك ، ومن جهة النظر التاريخية ، فيمكن تأكيد أن رواية الطوفان ، مثلما تقدمها

---

(١) منذ أن حصل المتخصصون على بعض المعلومات عن تسلسل الأحداث فى العصور القديمة ومنذ كفت هذه الخوليات الوهمية لكتاب العهد القديم الكهنوتيين عن أن تكون موضع تصديق ، سارع المسئولون بحذفها من كتب التوراة . لكن المعلقين المحدثين على هذه الأنساب – التى احتفظ بها – لا يلفتون انتباه قراء كتب التعليم الدينى العامة نحو الأخطاء التى تحتويها .

التوراة ، تتناقض بشكل واضح مع المعارف الحديثة . إن وجود روايتين هو دليل حاسم على تعديل البشر للكتب المقدسة .

رواية الطوفان فى القرآن

يقدم القرآن رواية شاملة مختلفة ولا تثير أى نقد من وجهة النظر التاريخية .

لا يقدم القرآن عن الطوفان رواية مستمرة . فهناك سور عديدة تتحدث عن العقاب الذى وقع على شعب نوح . أما أكثر الروايات كمالاً فهى فى سورة هود (١١) الآيات من ٢٥ إلى ٤٩ . أما سورة نوح (٧١) فهى تذكر بشكل خاص موعظة نوح كما تفعل ذلك الآيات من ١٠٥ إلى ١١٥ من سورة الشعراء (٢٦) .

ولكن قبل أن ننظر فى مجرى الأحداث بالمعنى الحقيقى علينا أن نحدد الطوفان مثلما يخبر به القرآن بالنسبة إلى السياق العام للعقوبات التى أنزلها الله على جماعات أذنبت بشكل خطير بتعديها على وصايا الله .

على حين تتحدث التوراة عن طوفان عالمى لعقاب كل البشرية الكافرة ، يشير القرآن على العكس ، إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة جيداً .

تشير إلى ذلك الآيات من ٣٥ إلى ٣٩ من سورة الفرقان ٢٥ :

« وَلَقَدْ آتَينَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلنَا مَعَهُ أخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً . فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً . »

« وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً » .

« وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً . »

« وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً . »

أما سورة الأعراف (٧) – الآيات من ٥٩ إلى ٩٣ – فتقدم العقوبات التى نزلت على شعب نوح وعاد وثمود وسدوم ومدين كل على حدة .

وعلى ذلك فالقرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب

نوح : وهذا يشكل الفرق الأساسى الأول بين الروايتين .

أما الفرق الجوهرى الثانى فهو أن القرآن ، على عكس التوراة ، لا يحدد زمن الطوفان ولا يعطى أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها .

وأما أسباب السيل فهى نفسها تقريباً فى الروايتين . وتذكر الرواية الكهنوتية للتوراة (التكوين ٧ ، ١١) سببين مقترنين . تقول : «فى ذلك اليوم انبثقت عيون الماء من الهوة السحيقة وانفتحت هواويس السماء .» أما القرآن فيحدد فى الآيتين ١١ و١٢ من سورة القمر (٥٤) ما يلى :

«فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ» .

والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح . فقد أعطى الله أمراً لنوح بأن يضع فى السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان وقد أنجز نوح هذا الأمر بأمانة .

* سورة هود (١١) – الآية ٤٠ :

« . . . احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيهِ الْقَوْلُ وَمنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ . »

ومن سبق عليه القول هنا أى من استبعد من الأسرة فهو ابن ملعون لنوح ، تقول لنا عنه الآيتان ٤٥ و٤٦ من نفس هذه السورة إن تضرع نوح لربه لم يغيّر من الأمر شيئاً . والقرآن يشير إلى من يوجد على السفينة ، بالإضافة إلى الأسرة التى قطع منها هذا الابن الملعون ، وهم قليلون ممن آمنوا بالله .

ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة . إن التوراة ، فى الواقع ، تقدم ثلاث روايات عن محتوى السفينة .

– على حسب الرواية الكهنوتية : نوح وأسرته دون أى استثناء وزوج من كل نوع .

– على حسب الرواية اليهوية ، هناك تمييز من ناحية بين الحيوانات الطاهرة والطيور . وبين الحيوانات النجسة من ناحية أخرى (والسفينة تحتوى على سبعة(١) أزواج من الفئة

(١) ألم يكن العدد ٧ يعنى فى اللغات السامية فى ذلك العصر كثرة غير محددة ؟

الأولى ، ذكر وأنثى ، وعلى زوج واحد فقط من الفئة الثانية) .

– على حسب روايات يهوية معدلة (التكوين ٧ ، ٨) : زوج من كل نوع طاهر أو نجس .

أما رواية الطوفان الفعلى التى تحتوى عليها سورة هود (١١) الآيات من ٤١ إلى ٤٩ ، وسورة المؤمنون (٢٣) ، الآيات من ٢٣ إلى ٣٠ ورواية التوراة فلا تقدمان اختلافات ذات دلالة خاصة .

وتقول التوراة بأن المكان الذى جنحت إليه السفينة نحو جبل ارارات (التكوين ٨ ، ٤) ، أما القرآن فيقول إنه «الجودى» (سورة هود ١١ – الآية ٤٤) . وهذا الجبل هو قمة جبال ارارات بأرمنيا ولكن لا شيء يثبت أن البشر لم يغيروا من الأسماء للتوفيق بين الروايتين . ويؤكد ر. بلاشير Blachere هذا : وفى رأى هذا الكاتب أن هناك كتلة جبلية بهذا الاسم بالجزيرة العربية . ولكن ربما كان اتفاق الأسماء أمراً مصطنعاً .

فى نهاية الأمر ، فالاختلافات بين روايات القرآن وروايات التوراة موجودة ، وهى هامة . وبعض هذه الاختلافات يفلت من أى فحص نقدى إذ هناك افتقاد للمعطيات الموضوعية . ولكن إذا كان بالإمكان التحقق من معطيات الكتب المقدسة ، وذلك بمعونة معطيات أكيدة ، يصبح واضحاً تمام الوضوح عدم إمكانية اتفاق رواية التوراة – فى تقديمها للطوفان بزمنه ومدته – مع مكتسبات المعرفة الحديثة . وعلى العكس من ذلك فإن رواية القرآن تتضح خالية من أى عنصر مثير للنقد الموضوعى . فمن عصر رواية التوراة إلى عصر تنزيل القرآن هل حصل الناس على معلومات من شأنها أن تلقى نوراً على حدث مثل هذا ؟ بالتأكيد لا ، فمن العهد القديم إلى القرآن كانت الوثيقة الوحيدة التى فى حوزة الناس عن هذه الحكاية القديمة هى التوراة بالتحديد . وإذا لم تكن العوامل الإنسانية تستطيع أن تشرح التغيرات التى طرأت على الروايات لتتجه بها إلى التوافق مع المعارف الحديثة فيجب أن نقبل شرحاً آخر وهو أن هناك تنزيلاً من الله قد جاء بعد التنزيل الذى تحتوى التوراة عليه .

خروج موسى
من مصر

مع خروج موسى وجماعته من مصر ، وهى المرحلة الأولى نحو استقراره بأرض كنعان نتعرض لحدث ذى أهمية كبرى ، حدث تاريخى أكيد ، يدخل فى سباق معروف بالرغم من الادعاءات التى نجدها هنا وهناك والتى تنحو إلى إضفاء صيغة أسطورية عليه .

وتشكل رواية الخروج فى العهد القديم ، مع رواية مسيرة الصحراء بعد الخروج من مصر ورواية التحالف الذى يقيمه الله بجبل سيناء ، الكتاب الثانى من التوراة أو أسفار موسى الخمسة Pentateuque . والقرآن بالطبع يفرد مكاناً كبيراً لرواية الخروج : فسرد علاقات موسى وأخيه هارون مع فرعون وسرد الخروج من مصر نجدهما فى أكثر من ١٠ سور بروايات طويلة كتلك التى نقرؤها فى السور الأعراف (٧) ، يونس (١٠) ، طه (٢٠) ، الشعراء (٢٦) أو بروايات أكثر تركيزاً أو بمجرد تذكرات بسيطة . ويتكرر اسم فرعون ، وهو الشخصية المركزية من الجانب المصرى ، ٧٤ مرة فى القرآن وفى ٢٧ سورة (ما عدا السهو) .

إن دراسة روايتى الخروج فى القرآن والتوراة مشوقة بشكل خاص ، فاختلافاً عما رأينا بالنسبة للطوفان ، تتطابق الروايتان هنا فيما يختص بالعناصر الجوهرية . وهناك بالتأكيد بعض الاختلافات ولكن لرواية التوراة قيمة تاريخية عظيمة ، كما سنرى ، حيث إنها تضعنا على طريق اكتشاف شخصية فرعون أو بالأحرى شخصية الفرعونين المعنيين بالأمر ، والقرآن فى هذا الفرض الذى ينطلق من التوراة يأتى بمعلومات إضافية ، وإلى هذين المصدرين المكتوبين تضاف المعطيات الحديثة التى يهبها علم دراسة الآثار المصرية . وبهذا وبمقابلة القرآن والتوراة ومعارف عصرنا نصل إلى تحديد الواقعة على حسب الكتب المقدسة فى سياق تاريخى .

الخروج على حسب التوراة

تبدأ رواية التوراة بالتذكير بدخول اليهود إلى مصر مع يعقوب لملاقاة يوسف . «ثم صعد ملك جديد إلى الحكم فى مصر ولم يكن يعرف يوسف» (الخروج ١ ، ٨) ، إنها فترة الاضطهاد ، فقد فرض فرعون على اليهود بناء مدينتين تعطيهما التوراة اسمى بيتوم Pitom ورمسيس Ramses . ولكى يتجنب هذا الملك التزايد السكانى عند العبريين فقد فرض عليهم أن يلقوا إلى النهر بكل طفل ذكر . وبالرغم من ذلك فإن أم موسى قد احتفظت به طيلة ثلاثة أشهر بعد ميلاده ، ولكنها تقرر فى النهاية أن تضعه فى سلة من الأسل على شاطئ النهر . وتكتشفه ابنة فرعون وتلتقطه لتضعه بالتحديد بين يدى أمه لترضعه ، ذلك أن أخت موسى التى كانت تراقب السلة لتعرف من الذى سيلتقطها ، تظاهرت بأنها لا تعرفه وأوصت إلى الأميرة بمرضعة ولم تكن هذه المرضعة إلا أم الطفل الوليد . ويلقى الطفل معاملة أبناء الفراعنة ويعطى له اسم «موسى» .

ويسافر موسى شابًّا إلى أرض مديان حيث يتزوج ويمكث طويلاً . وهناك تفصيلة هامة ، إذ يقول سفر الخروج (٢ ، ٢٣) : «وأثناء هذه الفترة الطويلة مات ملك مصر» .

ويأمر الله موسى أن يذهبَ للقاء فرعون ليخرج إخوته من مصر (سرد هذا الأمر موجود فى رواية حادثة شوك – النار) . ويساعد هارون أخاه فى إنجاز هذه المهمة . ولذلك وما إن يصل إلى أرض مصر يذهب موسى مع أخيه إلى فرعون الذى ورث ذلك الذى كان موسى قد ولد فى عهده منذ زمن طويل .

ويرفض فرعون طلب خروج يهود طائفة موسى من مصر . ويظهر الله من جديد لموسى ويأمره أن يكرر الطلب مرة أخرى . وكان عمر موسى فى ذلك الوقت ٨٠ عاماً على حسب التوراة . ويثبت موسى لفرعون بالسحر أن له قوى خارقة فوق الطبيعة ، لكن هذا لا يكفى ، وعندئذ ينزل الله على مصر الضربات المعروفة : مياه النهر التى تتحول إلى دم ، وغزو الضفادع والناموس والنعرة وموت القطعان وظهور الأورام على جلود البشر والحيوانات ،

وسقوط البرد والجراد ، والظلمات وموت المواليد الأولين وبرغم ذلك يظل فرعون يرفض خروج العبريين .

عندئذ يهربون من مدينة رمسيس وكان عددهم ٦٠٠,٠٠٠ رجل [١] « دون حساب أسرهم » (الخروج ١٢ ، ٣٧) . وهناك « أسرج فرعون عربته الحربية وقاد جيشه . وأخذ ٦٠٠ من أحسن مركباته وكل مركبات مصر الحربية يقودها الضباط . . . وانطلق ملك مصر مطارداً الإسرائيليين الخارجين مرفوعى الأيدى » (الخروج ١٤ ، ٦ – ٨) . ويلحق المصريون بجماعة موسى على شاطىء البحر . وعندما رفع موسى عصاه انفتح البحر أمامه ودخل رجاله إليه دون أن تبتل أقدامهم . » وطاردهم المصريون ودخلت جياد فرعون ومركباته وفرسانه كلهم إلى البحر « (الخروج ١٤ ، ٢٣) » وارتد ماء البحر كما كان وغطى مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذى دخل إلى البحر وراءهم ولم يبق منهم رجل واحد » (الخروج ١٤ – ٢٨ و ٢٩) .

إن نص سفر الخروج واضح تماماً . كان فرعون على رأس المطاردين . وقد هلك لأن سفر الخروج يحدد أنه « لم يبق منهم رجل واحد » . ويضاف إلى ذلك أن التوراة تكرر هذه التفصيلة فى مزامير داود : المزمور ١٠٦ الآية ١١ والمزمور ١٣٦ الآيات من ١٣ إلى ١٥ وهما حمد « للذى شق بحر البوص شقين وجعل إسرائيل يمر فى الوسط وألقى بفرعون وجيشه فى بحر البوص . » على حسب رواية التوراة لا شك إذن أن فرعون الخروج قد مات فى البحر . ولا تقول التوراة كلمة عن مصير جثة هذا الفرعون .

الخروج على حسب القرآن

تشبه رواية القرآن عن الخروج رواية التوراة فى الخطوط العريضة . ولابد من إعادة تركيب هذه الرواية فهى تتكون من عناصر منتشرة فى فقرات عديدة من القرآن . ومثل التوراة ، لا يذكر القرآن اسم أحد بما يسمح بتحديد شخصية الفرعون الذى كان يحكم مصر عند حدوث الخروج . وكل ما نعرف هو أن أحد أعضاء مجلسه كان اسمه « هامان » ،

(١) سنرى فيما بعد أن هذا العدد مبالغ فيه فعلاً .

وهو مذكور ست مرات فى القرآن (سورة القصص ٢٨ – الآيات ٦ ، ٨ ، ٣٨ سورة غافر (٤) الآيتان ٢٤ و٣٦ وسورة العنكبوت (٢٩) الآية (٣٩) .

فرعون مضطهد اليهود :

– سورة إبراهيم ١٤ – الآية ٦ :

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ » .

وتكرر الآية ١٤١ من سورة الأعراف (٧) ذكر الاضطهاد بنفس الألفاظ . ولكن القرآن لا يشير ، مثل التوراة ، إلى اسم المدينتين اللتين بناهما اليهود فى السخرة .

وأما حادثة وضع موسى على حافة النهر فهى مسرودة فى سورة طه (٢٠) (الآيتان ٣٩ و٤٠) وفى سورة القصص (٢٨) (آيات من ٧ إلى ١٣) . وتقول رواية القرآن إن عائلة فرعون هى التى التقطت موسى . تقول الآيتان ٨ و٩ من سورة القصص ما يلى :

« فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ . وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

ويقول التراث الإسلامى إن زوجة فرعون التى رعت موسى هى آسيا . أما القرآن فلا يقول بأن زوجة فرعون هى التى التقطته وإنما آله ، أى أهل بيته .

وأما شباب موسى ومكوثه بأرض مدين وزواجه فكل هذا مسرود فى سورة القصص (٢٨) الآيات من ١٣ إلى ٢٨ .

ويجد القارئ أيضاً حادثة شوك النار فى الجزء الأول من سورة طه (٢٠) وفى الآيات من ٣٠ إلى ٣٥ من سورة القصص (٢٨) .

ولا يذكر القرآن ضربات مصر العشرة التى أنزلها الله عقاباً ، مثلما تصفها التوراة بإطناب ، ولكنه يذكر بشكل موجز جداً خمس ضربات (سورة الأعراف (٧) – الآية ١٣٣) وهى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

ويقص القرآن الخروج من مصر دون التحديدات الجغرافية التى تعطيها رواية التوراة ودون التحديدات العددية الواردة فى هذه الرواية والتى يصعب تصديقها . إذ لا نرى جيداً كيف استطاع ٦٠٠ , ٠٠٠ رجل بأسرهم أن يمكثوا طويلاً فى الصحراء على حسب قول التوراة .

أما موت فرعون وهو يطارد العبريين فيسرده القرآن على الوجه التالى :

« فَأَتْبَعَهُمْ فِرعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ » . تقول هذا الآية ٧٨ من سورة طه (٢٠) : لقد هرب اليهود وهلك فرعون ولكن جثته وجدت وتلك تفصيلة هامة لا تشير إليها رواية التوراة .

* سورة يونس (١٠) – الآيات من ٩٠ إلى ٩٢ :

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ » .

وتتطلب هذه الفقرة تحديدين :

(ا) روح البغى والعدو المشار إليهما ، وذلك بالنظر إلى محاولات الإقناع التى قام بها موسى تجاه فرعون .

(ب) إن إنقاذ فرعون ينطبق على بدنه ، وذلك أن الآية ٩٨ من سورة هود (١١) تحدد أن الله قد حكم بعذاب النار على فرعون وآله . تقول الآية :

« يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » .

وإذن بالنسبة للأمور التى تحتمل المقابلة مع المعطيات التاريخية والجغرافية والأثرية يجب ملاحظة أن رواية القرآن تختلف عن رواية التوراة فى النقاط التالية :

– لا يذكر القرآن أسماء أماكن سواء كان ذلك بالنسبة للمدن التى بناها عبريو جماعة موسى أو بالنسبة لخط مسير الخروج .

– لا يذكر القرآن موت أحد الفراعنة فى أثناء مكوث موسى بأرض مدين .

– لا يحتوى القرآن على معطيات خاصة بعمر موسى عندما تحدث إلى فرعون .

– لا يحتوى القرآن على تحديدات عددية خاصة بجماعة موسى التى تضخم التوراة عددها وتصل بها إلى أعداد غير معقولة (فـ ٦٠٠,٠٠٠ رجل بأسرهم يكونون احتمالاً جماعة من أكثر من مليونين من السكان) .

– لا تحتوى التوراة على أية إشارة خاصة بالعثور على جثة فرعون بعد موته .

أما النقاط المشتركة التى يمكن التنويه بها فيما يختص بموضوعنا فهى :

–تأكيد القرآن لاضطهاد فرعون ليهود جماعة موسى .

– عدم احتواء الروايتين على اسم ملك مصر .

– تأكيد القرآن لموت فرعون عند خروجه من مصر .

مقابلة بين معطيات الكتب المقدسة والمعارف الحديثة

روايات القرآن والتوراة الخاصة بمكوث بنى إسرائيل بمصر وبخروجهم منها تقدم جوانب تستطيع أن تكون موضوع مقابلات مع المعارف الحديثة . والحق يقال إن هذا ممكن ولكن بشكل غير متساو ، حيث إن بعض الجوانب تثير كمًّا من المشاكل على حين أن هناك جوانب أخرى لا تهب أى مادة للبحث .

١ – دراسة بعض تفاصيل الروايات :

العبريون فى مصر

يبدو فعلاً أن بالإمكان القول بأن العبريين مكثوا بمصر طيلة ٤٠٠ أو ٤٣٠ عاماً دون المجازفة بالوقوع فى خطأ كبير ، وبحسب ما هو مكتوب فى التوراة (التكوين ١٥ ، ١٣ والخروج ١٢ ، ٤٠) – وأيًّا كان الأمر فى عدم الاتفاق هذا بين التكوين والخروج ، وهو قليل الأهمية ، فإن مكوثهم قد بدأ باستقرار يوسف بن يعقوب وإخوته بمصر وكان ذلك بعد

عصر إبراهيم بكثير . وفيما عدا التوراة التى تعطى المعلومات التى قدمت لتوى والقرآن الذى يشير إلى هذا الاستقرار دون أن يعطى أقل إشارة زمنية لتسلسل الأحداث فإننا نكاد لا نملك أية وثيقة أخرى قادرة على إيضاح هذه النقطة لنا .

ومن ب . مونتى P.Montet إلى دانيل روبس Daniel Rops فإن المتخصصين يقولون حاليًا ، بعد النظر إلى كل الاحتمالات ، بتواكب حركة الهكسوس نحو مصر فى القرن الـ ١٧ ق . م . مع وصول يوسف وآله . وإنه فى مدينة أفاريس ، بالدلتا ، استقبل عاهل هكسوسى يوسف وإخوته استقبالاً حسناً .

وهذا التقدير ، بالتأكيد ، يتناقض بوضوح مع ما يقول لنا كتاب الملوك الأول من التوراة (٦ ، ١) فهو يحدد الخروج من مصر بـ ٤٨٠ سنة قبل بناء معبد سليمان (فى ٩٧١ ق . م : تقريباً) . هذا التقدير يحدد إذن الخروج من مصر بنحو ١٤٥٠ عاماً قبل الميلاد تقريباً . وبالتالى يكون الدخول قد حدث فيما بين ١٨٥٠ – ١٨٨٠ ق . م . ولكن هذه بالتحديد هى الفترة التى يفترض حاليًا أن إبراهيم قد عاش بها وهو ينفصل بحوالى ٢٥٠ سنة عن يوسف فيما يعتقد اليوم اعتماداً على معطيات أخرى فى التوراة . وعلى ذلك تكون هذه الفقرة من كتاب الملوك الأول من التوراة غير مقبولة من وجهة نظر التسلسل الزمنى للأحداث[١] . وسنرى أن هذه النظرية التى ندافع عنها هنا لا يمكن الاعتراض عليها ، فيما عدا المعارضة التى يمكن استخراجها من كتاب الملوك الأول هذا ، ولكن عدم الدقة الواضحة فيه الخاصة بمعطيات التسلسل الزمنى للأحداث تشجب أية قيمة لهذه المحاضرات .

إن ما تركه العبريون كآثار لمكوثهم بمصر غامض جدًّا إذا استثنينا معطيات الكتب المقدسة . ومع ذلك توجد بعض الوثائق الهيروغليفية التى تشير إلى أنه قد وجد بمصر فئة من العاملين تسمى أبيرو Apiru أو هابيرو Hapiru أو Habiru . رأى البعض ، صحة أو خطأ ، أنهم العبريون . وقد أشير بهذا الاسم إلى عمال البناء والعمال الزراعيين وعمال قطف

(١) سنعود فيما بعد إلى ما يجب الاعتقاد به ، مع الأب ديفو R. P. de Vaux فيما يختص بالرجوع إلى هذا الكتاب الأول للملوك .

العنب إلخ . . . من أين أتوا ؟ عسيرة حقًّا الإجابة عن هذا . وكما يقول الأب ديفو « فإنهم لا ينتمون إلى السكان المحليين ولا يجدون هويتهم فى طبقة من المجتمع وليس لهم عمل واحد ولا وضع واحد . »

هناك بردية من عصر تحتمس الثالث Tutmes III تذكرهم على أنهم « سياس » . ومن المعروف أن أمنوفيس الثـــانى Amenophis II ، فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد قد أتى منهم بـ ٣٦٠٠ سجين من كنعان ، فقد كانوا يشكلون جزءاً ، لا بأس به ، من سكان الشام (سوريا وفلسطين) ، كما يقول الأب ديفو . وفى نحو ١٣٠٠ ق . . م . وفى حكم ســـيتى الأول Sethi Ier دبر نفس هؤلاء الأبيرو بكنعان اضطرابات بمنطقة بيت – شيـــان Beth-Shean . وفى حكم رمسيس الثانى كان منهم من يعمل بالمحاجر أو فى نقل الأوتاد لأعمال فرعون (بوابات رمسيس ميـــامون Miamon الكبيرة) . ومعروف من التوراة أن العبريين ، فى حكم رمسيس الثانى ، قد بنوا عاصمة الشمال مدينة رمسيس (رع – مسيس) . وستشير الكتابات المصرية مرة أخيرة إلى هؤلاء الأبيرو فى القرن الثانى عشر فى حكم رمسيس الثالث .

وليس هؤلاء الأبيرو مذكورين فى مصر فقط . فهل كانت اللفظة تنطبق على العبريين وحدهم ؟ وقد يكون مفيداً أن نذكر بأن الكلمة ربما كانت تشير أولاً إلى عمال السخرة دون أية فكرة مسبقة عن أصلهم ، وإنها قد استخدمت بعد ذلك كصفة مهنية . أليس من حقنا أن نقوم بعملية تقريب مع المعانى المختلفة لكلمة سويسرى Suisse بالفرنسية التى تشير إلى ساكن سويسرا كما تشير إلى جندى سويسرى فى الملكية الفرنسية أو حارس بالفاتيكان أو موظف بكنيسة مسيحية ؟

أيًّا كان الأمر ففى عصر رمسيس الثانى نفذ العبريون (فى قول التوراة) أو الأبيرو (حسب النصوص الهيروغليفية) فى الأعمال الكبرى التى أمر بها فرعون ويمكن أن يقال إنهم ساهموا فى أعمال إجبارية . وليس هناك شك فى أن رمسيس الثانى كان يضطهد اليهود : ومدينتا رمسيس وبيتوم المذكورتان فى سفر الخروج تقعان على الجزء الشرقى من دلتا النيل . وتانيس Tanis وقنطير Qantir الحاليتان اللتان تبعدان ٢٥ كم كل عن الأخرى مطابقتان لهاتين

المدينتين القديمتين . هناك كانت عاصمة الشمال التى بناها رمسيس الثانى . ورمسيس الثانى هو فرعون الطغيان .

ولد موسى فى هذا الإطار . وقد رأينا فيما سبق الظروف التى طبعت إنقاذه من مياه النهر . وأن اسمه مصرى . وقد أثبت ب . مونتى P. Montet هذا جيداً فى كتابه « مصر والتوراة L'Egypte et la Bible » ف . . مسو Mesw أومس Mesy اسمان فى قائمة معجم أسماء الأشخاص فى اللغة الهيروغليفية لرانك Ranke وموسى هو نقل لهذا الاسم فى القرآن .

ضربات مصر :

تشير التوراة تحت هذا الاسم إلى عشر عقوبات أنزلها الله على سكان مصر ، كما أنها تعطى تفاصيل كثيرة عن كل ضربة من هذه الضربات . وهناك عدة من هذه العقوبات تتسم بجانب وبعد خارقين . أما القرآن فهو يعد خمسة فقط من هذه الضربات وليست فى معظمها إلا مبالغة لظاهرات طبيعية . هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

أما انتشار الجراد والضفادع فهو مذكور فى التوراة . كما أنها تتحدث عن مياه الأنهار التى تحولت إلى دم يغرق كل البلاد (كذا) ، ولكن القرآن يشير إلى الدم ويستبعد كل تفصيل إضافى آخر . وفيما يتعلق بهذا الدم فيمكن القول بفروض كثيرة .

وأما الضربات الأخرى (الناموس والنعرة والأورام الجلدية والبرد والظلمات وموت المواليد الأولين والماشـــية) التى تصفها التوراة فهى تأتى من أصول مختلفة كما كان الحال بالنسبة لرواية الطوفان التى تكونت بتجاور عناصر مصادر متعددة كل إلى جانب الآخر .

خط مسير الخروج :

لا يعطى القرآن أى إشارة عن خط مسير على حين تشير التوراة إلى خط مسير وبكثير من الدقة . وقد قام كل من الأب ديفو و ب . مونتى بدراسة هذا الخط . ويفترض أن نقطة الانطلاق كانت من تانيس – قنطير . أما فيما يتعلق ببقية الطريق فلم يعثر فى أى مكان على

آثار من شأنها أن يؤكد رواية التوراة ، كما أنه ليس بالإمكان تحديد المكان الذى انفتح فيه البحر حتى تمر جماعة موسى .

معجزة البحر :

افترض البعض وجود عملية جزر وقعت لأسباب فلكية أو أرضية ذات صلة بانفجار بركان بعيد . وانتهز العبريون ، فى هذا القول ، انسحاب ماء البحر ، ويكون المصريون الذين انطلقوا وراءهم قد غرقوا بسبب مد ماء البحر . لكن كل هذا مجرد افتراض .

٢ – موقع الخروج فى الحوليات الفرعونية :

فيما يخص تحديد تاريخ الخروج فيمكن الوصول إلى معطيات إيجابية وبشكل له قيمة . يعتبر ، منـــذ عصر طويل جدًّا ، منبتاح Mineptah . خليفة رمسيس الثـــانى ، هو الفرعون الذى وقع فى عصره خروج موسى من مصر . لقد كتب ماسبيرو Maspero ، عالم الآثار المصرية الشهير فى بداية هذا القرن ، فى كتاب « دليل زائر متحف القاهرة » (١٩٠٠) أن منبتاح ، « فى قول مأثور إسكندرى الأصل ، هو فرعون الخروج ، أى هذا الذى هلك فى البحر حسبما يقال » . ولم أستطع أن أجد الوثائق التى أسس عليها ماسبيرو زعمه ولكن جدية الكاتب تفرض علينا أن نعلق قيمة كبيرة على ما قال به .

وإذا استثنينا ب . مونتى P.Montet . فقليـــلون حقًّا علماء الآثار المصرية أو المتخصصون المحدثون فى تفسير التوراة الذين بحثوا عن حجج قد تكون فى صالح أوضد هذا الفرض . بل بالعكس فقد شهدنا فى العقود الأخيرة ، ازدهار افتراضات يختلف كل منها عن الآخر وتبدو أنها لم تطرح إلا بهدف الاستجابة للتوافق مع تفصيلة فى روايات الكتب المقدسة ، ولم يهتم طارحو هذه الافتراضات بالجوانب الأخرى لهذه الكتب . وهكذا نشهد ظهور هذا الفرض أو ذلك الذى يبدو متوافقاً مع جانب من رواية دون أن يكلف صاحب الفرض نفسه عناء مقابلته بالمعطيات الأخرى للكتب المقدسة (وبالتالى ليس فقط

بالمعطيات الأخرى للتوراة) وفى نفس الوقت مقابلته بكل المعطيات التى يقدمها التاريخ وعلم الآثار إلخ . . .

ومن أغرب الفروض التى رأت النور فرض ج . دى ميسيلى J. de Miceli (١٩٦٠) الذى يدعى أنه توصل إلى تحديد زمن الخروج بهامش تقريبى يصل إلى يوم واحد ، وهو ٩ أبريل ١٤٩٥ ق . م . وهذا فقط من خلال حساب التقويمات . وعلى ذلك يكون تحتمس الثانى ، وكان ملكاً فى هذا التاريخ ، هو فرعون الخروج . وبما أن مومياء تحتمس الثانى مكتوب عليها وصف لأورام جلدية يصفها الكاتب بأنها البرص – دون أن ندرى سبب ذلك – وبما أن واحداً من ضربات مصر التى تذكرها التوراة هى طفح جلدى فإن الفرض يصبح أمراً أكيداً . إن هذا البناء الغريب لا يأخذ فى اعتباره مطلقاً الأمور الأخرى فى رواية التوراة ، وخاصة إشارة التوراة إلى مدينة رمسيس ، تلك الإشارة التى تبطل كل فرض عن تحديد تاريخ للخروج قبل أن يكون أحد الرعامسة قد ملك مصر .

أما فيما يتعلق بأورام تحتمس الثانى الجلدية فليس هناك ما يبرر إقامة الحجة منها على أن ملك مصر هذا هو فرعون الخروج ، حيث إن ابنه ، تحتمس الثالث وحفيده أمينوفيس الثانى هما أيضاً كانا مصابين بأورام جلدية (١) أقام البعض عليها فرض وجود مرض بهذه العائلة . وعلى ذلك يكون فرض أن تحتمس الثانى هو فرعون الخروج فرضاً لا يمكن الدفاع عنه .

كذلك الفرض الذى أقامه دانييل – روبس Daniel Rops فى كتابه « شعب التوراة » Le Peuple de la Bible والذى ينسب إلى أمينوفيس الثانى دور فرعون الخروج . إذ لا يبدو أن فرضه يستند إلى أساس بأكثر من الفرض السابق . فبحجة أن أباه تحتمس الثالث كان شديد القومية ، يجعل دانيل رويس من أمينوفيس الثانى مضطهداً للعبريين وبأن حماته ، الملكة حتشبسوت الشهيرة ، هى التى التقطت موسى دون أن نعرف سبباً لذلك .

أما الأب ديفو R. P. de Vaux فهو يضع على أساس أكثر صلابة فرضه القائل

(١) ترى هذه الأورام جيداً على مومياء هؤلاء الفراعنة بمتحف القاهرة .

برمسيس الثانى الذى درسه فى كتابه «تاريخ إسرائيل القديم» (١) . وهو وإن لم يكن يتفق مع كل نقاط رواية التوراة فهو فرض له قيمة معطية رئيسية : وهى بناء مدينتى رمسيس وبيتوم ، المذكورتين فى نص التوراة . وعلى ذلك لا يمكن اعتبار أن الخروج قد حدث قبل صعود رمسيس الثانى إلى العرش وهو حدث تحدده حوليـــات دريتون Drioton وفانديه Vandier بعـــام ١٣٠١ ق . م . وتحدده حوليات روتون Rowton بعام ١٢٩٠ ق . م . إن الفرضين الأولين المذكورين فيما سبق مرفوضان لسبب ضرورى وهو أن رمسيس الثانى هو فرعون الاضطهاد الذى تتحدث عنه التوراة .

وفى رأى الأب ديفو أن الخروج قد حدث فى النصف الأول من حكم رمسيس أو فى منتصفه . وتحديد الأب ديفو لهذا التاريخ غير دقيق تماماً : فهو يوحى بهذه الفترة حتى يعطى الوقت الكافى ، إن جاز القول ، لجماعة موسى أن تستقر بأرض كنعان وحتى يتمكن خليفة رمسيس الثانى الملك منبتاح – الذى نظم الحدود بعد موت أبيه – من أن يخضع بنى إسرائيل كما تشهد بذلك نصب يرجع إلى العام الخامس من ملكه

يمكن معارضة هذا الفرض بحجتين .

(ا) تشير التوراة فى سفر الخروج (٢ ، ٢٣) إلى أن ملك مصر قد مات فى أثناء مكوث موسى ببلاد مدين . ويصف سفر الخروج هذا الملك بأنه هو الذى جعل العبريين يبنون بالسخرة مدينتى رمسيس وبيتوم . إنه رمسيس الثانى . وعلى ذلك لا يمكن أن يكون الخروج قد حدث إلا فى عصر خليفة هذا الأخير . ولكن الأب ديفو يقول لنا إنه يشك فى مصدر التوراة للآية ٢٣ من الإصحاح الثانى لسفر الخروج .

(ب) وأكثر ما يثير الدهشة هو أن الأب ديفو ، وهو مدير مدرسة الكتاب المقدس بأن فرعون قد مات وهو يطارد الهاربين ، وتلك تفصيلة تجعل من المستحيل أن يكون الخروج قد وقع فى زمن آخر سوى نهاية حكم ما .

---

(١) Desclee de Brouwer, 1970

(٢) J. Gabalda et Cie, 1971.

الواقع أننا يجب أن نكرر بأنه ليس من المشكوك فيه أن يكون فرعون قدمات فى أثناء هذه المطاردة . فالإصحاحان ١٣ و ١٤ من سفر الخروج حاسمان فى هذه النقطة : «أسرج فرعون مركبته وقاد جيشه . . .» (١٤ ، ٦) . «وانطلق ملك مصر مطارداً الإسرائيليين الذين خرجوا مرفوعى الأيدى» (١٤ ، ٨) . . . «وارتدت المياه كما كانت وغطت مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذى دخل إلى البحر وراءهم . ولم يبق منهم واحد» (١٤ ، ٢٨ – ٢٩) . ويضاف إلى ذلك أن المزمور ١٣٦ لداود يؤكد موت فرعون مصليا ليهوه . . . «الذى ألقى فرعون وجيشه إلى بحر البوص .» (١٣٦ ، ١٥) .

إذن فقد مات أحد الفراعنة فى حياة موسى وحينما كان بأرض مدين ومات آخر فى أثناء الخروج . ليس هناك فرعون واحد لموسى بل فرعونان : فرعون القهر وفرعون الخروج من مصر . وعلى هذا يصبح فرض الأب ديفو القائل بفرعون واحد ، وهو رمسيس الثانى ، غير مرضى حيث إنه لا يشرح كل شىء . وستأتى الاعتبارات التالية بحجج إضافية ضد هذا الفرض .

٣ — رمسيس الثانى فرعون الاضطهاد – منبتاح فرعون الخروج :

استخدم ب . مونتى بشكل صحيح التراث الإسكندرى الأول (١) الذى أشار إليه ماسبيرو والذى نجده بعد ذلك بكثير فى التراث المسيحى الكلاسيكى (٢) . ويعرض ب . مونتى هذه النظرية فى كتابه «مصر والتوراة» (٣) L'Egypte et la Bible وهناك حجج إضافية تدعمها وخاصة ما أتت به رواية القرآن ولكن هذا العالم الشهير فى الآثار لا يشيره إليها مطلقاً . ولنعد إلى التوراة قبل أن نناقشها .

يحتوى سفر الخروج على إشارة إلى كلمة «رمسيس» برغم أن اسم الفرعون غير مقدم .

---

(١) لا شك أن فى عصر البطالسة العظيم كان بالإسكندرية ، قبل التخريب الذى جاء به الفتح الرومانى ، وثائق تاريخية عن العصر القديم نفتقد إليها بشدة اليوم .

(٢) كتب التاريخ المقدس فى بداية القرن العشرين الموجهة إلى التعليم الدينى ، مثل كتاب ابى هـ . ليستر Abbé H. Lesétre تشير إلى الخروج على أنه حدث حين كان منبتاح ملكاً على مصر .

(٣) Delachaux et Niestle, Neufchatel, 1959.

و « رمسيس » فى التوراة هو اسم إحدى المدينتين المذكورتين باعتبارهما قد بنيتا بعمل العبريين فى السخرة . ومعروف اليوم أن هاتين المدينتين كانتا بمنطقة تانيس – قنطير فى الجزء الشرقى من دلتا النيل حيث بنى رمسيس عاصمته للشمال . ولا شك أنه كانت هناك أبنية أخرى فى هذه المنطقة قبل رمسيس الثانى ولكن تحول هذه المنطقة إلى موقع هام يرجع إلى هذا الملك . وقد أتت الحفائر التى تمت فى العقود الأخيرة ببرهان حاسم على ذلك . وقد استخدم هذا الملك العبريين المستعبدين فى بناء هذه العاصمة .

إن قراءة اسم « رمسيس » فى التوراة لا تذهل العقل اليوم : فقد أصبحت الكلمة شائعة منذ أن اكتشف شامبليون – منذ قرن ونصف – مفتاح الحروف الهيروغليفية وذلك بالتحديد بدراسة الحروف الأساسية لهذا الاسم . وقد اعتدنا اليوم قـــراءة هذا الاسم والنطـــق به مع معرفة ما يعنى . ولكن يجب أن نتصور أن معنى الحروف الهيروغليفية كان قد فقد فى القرن الثالث بعد الميلاد تقريباً ، وأن اسم رمسيس لم يحفظ إلا فى التوراة وفى بعض الكتب اليونانية واللاتينية التى شوهت الاسم قليلاً أوكثيراً . فهكذا مثلاً يتحدث تاسيت Tacite فى حوليـــاته Annales عـــن Rhamsis . أما التوراة فقد احتفظت بمنتهى الدقة باسم رمسيس وهى تذكره أربع مرات فى أسفار موسى الخمسة (التكوين ٤٧ ، ١١ ، الخروج ١ ، ١١ و١٢ ، ٣٧ ، والعدد ٣٣ ، ٣ و٣٣ ، ٥) .

وفى التوراة العبرية يكتب اسم رمسيس بطريقتين : Râ(e)mss و Râ(e)âmss [1] وفى الطبعة اليونانية للتوراة المسماة بالـ Septante اسمه Râmessê . أما التوراة اللاتينية (Vulgate) فهو Ramesses . وأما الطبعة الكليمانتية بالفرنسية Bible Clementine (الطبعة الأولى ١٦٢١) فالكلمة مكتوبة بنفس الطريقة : Ramesses . وقد كانت هذه الطبعة جارية فى أثناء دراسات شامبليون . وفى كتابه « مختصر المنهج الهيروغليفى لقدماء المصريين Précis du Systéme Hiéroglyphique des Anciens Egyptiens (الطبعة الثانية ١٨٢٨ ص ٢٧٦) يتحدث شامبليون عن كيفية كتابة الكلمة فى التوراة .

---

(١) الحرف e يعادل الحرف العبرى Ayin

إذن فقد حفظت التوراة اسم رمسيس بشكل رائع وذلك فى نسخها العبرية واليونانية واللاتينية (١) .

إن المعطيات التى سبقت تسمح إذن بإثبات ما يلى :

(ا) أن الخروج لا يمكن أن يتصور قبل وصول أحد الرعامسة إلى الحكم فى مصر ،

(ب) أن موسى قد ولد فى حكم بانى مدينتى رمسيس وبيتوم أى فى عهد رمسيس الثانى .

(جـ) أن الفرعون الذى كان يحكم بمصر قد مات عندما كان موسى بأرض مدين . أما بقية حكاية موسى فإنها تقع فى حكم خليفة هذا الملك أى منبتاح .

بل أكثر من ذلك تأتى التوراة بعنصر آخر عظيم الأهمية فى تحديد زمن الخروج فى الحوليات الفرعونية : والمقصود هو الإشارة إلى أن عمر موسى كان ٨٠ عاماً عندما شرع ، بأمر من الله ، فى محاولة الحصول من فرعون على إطلاق سراح إخوته : «كان عمر موسى ٨٠ عاماً وهارون ٨٣ عاماً عندما تحدثا إلى فرعون» (الخروج ٧ ، ٧) . ويضاف إلى ذلك أن التوراة (٢) تعلمنا أن الفرعون الذى ولد موسى فى عهده قد مات عندما كان موسى ببلاد مدين ، هذا برغم أن رواية التوراة تستمر دون إشارة لأى تغيير فى اسم الملك . هاتان الفقرتان من التوراة تتضمنان إذن أن مجموع المَدّتَينِ ملك الملكين اللذين عاش موسى فى عصرهما ، يكون على أكثر من ٨٠ عاماً .

ولكننا نعلم أن رمسيس الثانى حكم لمدة ٦٧ عاماً (أى من ١٣٠١ إلى ١٢٣٥ ق . م . على حسب حولية دريتون وفانديبه أو من ١٢٩٠ إلى ١٢٢٤ ق . م . على حسب حولية روتون) . أما فيما يختص بمنبتاح ، خليفته ، فلا يستطيع علماء الآثار المصرية أن يعطوا فترة حكم محددة ولكنها لا تقل عن عشر سنوات حيث إن العام العاشر من حكمه تشهد به الوثائق ، كما يشير إلى ذلك الأب ديفو . لكن مانيتون Manethon يعطيه عشرين عاماً من

---

(١) ومن المثير حقًّا أن نلاحظ فى نسخ التوراة القديمة أن المعلقين لم يفهموا شيئاً بالمرة عن معنى الكلمة . فعلى سبيل المثال تعطى الطبعة الفرنسية للتوراة الكليمنتية لعام ١٦٢١ التعريف التالى لكلمة رمسيس وهو تعريف مضحك عديم المعنى : «صاعقة الدوده .

(٢) (الخروج ٢ ، ٢٣) .

الحكم . وأما دريتون وفانديبه فيقولان باحتمالين بالنسبة لمنبتاح : إما أن يكون قد حكم لمدة عشر سنوات من ١٢٣٤ وإما أن يكون قد حكم لمدة عشرين عاماً على حسب قول روتون أى من ١٢٢٤ إلى ١٢٠٤ ق . م . ولا يعرف علماء الآثار المصرية شيئاً محدداً عن نهاية حكم منبتاح : وكل ما يعرف هو أن مصر قد مرت بعده بأزمة داخلية شديدة الخطورة دامت ما يقرب من ربع قرن .

وبرغم أن حوليات الحكم غير دقيقة فليس هناك ، طيلة الدولة الحديثة ، فترات أخرى استطاع فيها حكمان متواليان أن يصلا أو يتخطيا الثمانين عاماً فيما عدا فترة رمسيس الثانى ومنبتاح . إن معطيات التوراة الخاصة بعمر موسى عندما شرع فى تحرير إخوته لا يمكن أن تدخل إلا فى إطار تعاقب حكمى رمسيس الثانى ومنبتاح . وكل شىء يسمح بالتفكير بأن موسى قد ولد فى بداية حكم رمسيس الثانى وكان مازال موجوداً بمدين عندما مات بعد سبعة وستين عاماً من الحكم ثم أصبح بعد ذلك المدافع عن العبريين فى مصر أمام منبتاح ابن وخليفة رمسيس الثانى . وقد وقعت هذه الأمور فى النصف الثانى من حكم منبتاح إذا كان قد حكم مدة عشرين عاماً وهذا محتمل تماماً كما يعتقد روتون بذلك . وعندئذ قاد موسى الخروج من مصر أى فى نهاية حكم منبتاح على كل حال ، حيث إن فرعون قد فقد حياته وهو يطارد العبريين الخارجين من مصر كما يشير إلى ذلك القرآن والتوراة .

ويتفق هذا البيان تماماً مع ما تخبر به الكتب المقدسة عن مهد موسى والتقاط أسرة فرعون له . والمعروف فعلاً أن رمسيس الثانى كان متقدماً فى العمر عند موته . لقد قال البعض بأنه كان قد بلغ تسعين عاماً أو مائة عام . وعلى حسب هذا الفرض فيكون عمره من ٢٣ إلى ٣٣ عاماً فى بداية حكمه الذى دام ٦٧ عاماً . فى هذه السن كان يمكن أن يكون متزوجاً وليس هناك تناقض فى ذلك مع اكتشاف « أحد أعضاء أسرة فرعون » ، فى قول القرآن ، لموسى فى المهد على حافة النيل وطلبت امرأة فرعون من زوجها أن يبقيه حيًّا . أما التوراة فهى تدعى أن ابنة فرعون هى التى اكتشفته . وبالنظر إلى عمر رمسيس الثانى فى

بداية حكمه فيحتمل تماماً أن كانت له ابنة اكتشفت الطفل المتروك ، وإذن رواية القرآن ورواية التوراة لا تتناقضان مطلقاً فى هذه النقطة .

إن الفرض المصاغ هنا يتفق بشكل مطلق مع القرآن . ولكنه ، على العكس ، لا يتناقض إلا مع فقرة واحدة من التوراة وهى ، كما رأينا ، الآية الأولى من الإصحاح السادس من سفر الملوك (وهو ليس جزءاً من التوراة ويجب التنويه بهذا) . هذه الفقرة محل جدل كثير والأب ديفو يرفض معطيات تسلسل الأحداث فى هذا الكتاب من العهد القديم ، الذى يحدد زمن الخروج من مصر بالنسبة إلى بناء معبد سليمان . وكون أنها موضوع تحفظ يمنع من إعطائها قيمة الحجة الحاسمة ضد النظرية التى عرضنا لها هنا .

مشكلة نصب العام الخامس لمنبتاح :

رأى البعض أنه من الممكن أن يوجد فى نص النصب الشهير للعام الخامس من حكم منبتاح اعتراضاً على القضية المطروحة هنا عن الخروج من مصر والذى يشكل آخر عمل فى حكم هذا الفرعون .

ولهذا النصب أهمية عظمى حيث إنه يشكل الوثيقة الهيروغليفية الوحيدة المعروفة التى يشار فيها إلى كلمة « إسرائيل » [1] . ولقد اكتشف هذا النصب بطيبة فى المعبد الجنائزى لفرعون ويقدر تاريخه بالجزء الأول من حكم منبتاح . وهو يشير إلى سلسلة من الانتصارات التى حققها على جيران مصر وخاصة ، فى نهاية الوثيقة ، انتصار على « إسرائيل التى محيت ولم يعد لها بذور . . . » . واستناداً إلى هذا الأمر قال البعض بأن وجود كلمة « إسرائيل » يتضمن أن اليهود كانوا مستقرين بأرض كنعان فى العام الخامس من حكم منبتاح وأن خروج العبريين من مصر ، كان قد وقع قبل ذلك الوقت .

ولا يبدو هذا الاعتراض مقبولاً ، فهو يعنى أنه لم يكن هناك يهود بأرض كنعان طالما كان هناك عبريون بمصر وهذا أمر غير محتمل . وبالرغم من أن الأب ديفو مناصر لقضية رمسيس الثانى ، فقد كتب فى كتابه « تاريخ إسرائيل القديم » وفيما يتعلق بالاستقرار بأرض

(١) الكلمة متبوعة بتعريف لا يترك أى مجال للشك فى تعريفها لجماعة إنسانية .

كنعان ، كتب ما يلى : « فيما يخص الجنوب فإن تاريخ استقرار جماعات تنتمى إلى العبريين بمنطقة قادش غير محدد وهو سابق على الخروج من مصر . » هو إذن يقول بمعقولية استقرار بعض الجماعات التى خرجت من مصر فى زمن آخر غير زمن خروج جماعة موسى من مصر . إن « الابيرو » أو « الهابيرو » الذين يطابقهم البعض على الاسرائيليين كانوا بالشام قبل رمسيس الثانى وبالتالى قبل الخروج : إن أمينوفيس الثانى ، كما هو معروف من إحدى الوثائق ، قد أتى بمجموعة من الأسرى قدرها ٣٦٠٠ أسير . وقد استخدمهم كعمال سخرة بمصر . وفى عصر سيتى الأول أيضاً كان يوجد منهم بأرض كنعان كثيرون حيث دبروا الاضطرابات بمنطقة بيت – شيان ، ويذكر ب . مونتى هذا فى كتابه « مصر والتوراة » . وعلى ذلك يكون معقولاً تماماً أن منبتاح قد عاقب بقسوة هذه العناصر على حدوده على حين كان فى داخل البلاد دائماً هؤلاء الذين تجمعوا فيما بعد حول موسى للهروب من مصر . وعلى ذلك لا يعارض نصب منبتاح للعام الخامس مطلقاً الفرض المقدم هنا .

ويضاف إلى ذلك أن ظهور كلمة « إسرائيل » فى تاريخ الشعب اليهودى لا يرتبط بتاتاً باستقرار جماعة موسى بأرض كنعان . وأصل الكلمة هو ما يلى :

على حسب سفر التكوين (٣٢ ، ٢٩) فإسرائيل هو الاسم الثانى الذى أعطى ليعقوب ابن إسحاق وحفيد إبراهيم . وربما معناه على ما يحتمل « ليظهر الله قويًا » ، وذلك على حسب المعلقين على الترجمة المسكونية للعهد القديم (١٩٧٥) . وبعد أن طبق الاسم على رجل ، يصبح من غير المدهش أن يصف بالتالى جماعة بأكملها تخليداً لذكرى أب أول .

وإذن فقد ظهر اسم إسرائيل قبل موسى بكثير أى قبله بعديد من مئات الأعوام . وكون أن نرى الاسم مذكوراً على نصب يرجع تاريخه إلى الفرعون منبتاح أمر لا يدهش . إن هذه الإشارة لا تكون بأى حال حجة فى صالح تاريخ خروج موسى قبل العام الخامس من منبتاح . الواقع ، أن النصب عندما يشير إلى جماعة تسميها « إسرائيل » فإنه لا يستطيع أن يشير إلى جماعة مستقرة سياسيًّا حيث إن هذا التسجيل يرجع إلى نهاية القرن الـ ١٣ قبل الميلاد وحيث إن مملكة إسرائيل لم تتكون إلا فى القرن العاشر قبل الميلاد . إنها بالضرورة

إذن مجموعة بشرية أكثر تواضعاً [١] .

ومعروف فى عصرنا أن فترة طويلة من التكون ما بين ٨ أو ٩ قرون قد سبقت دخول إسرائيل إلى التاريخ . وقد طبعت هذه الفترة باستقرار جماعات عديدة نصف – بدوية فى كل المنطقة ومنهم خاصة الأموريون والأراميون كما طبعت بظهور الآباء الأولين فى داخل هذه الجماعات ومن بينهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب – إسرائيل . والاسم الثانى للأب الأخير قد استخدم فى الإشارة إلى الجماعة الأولى وهى بذرة لشخصية سياسية ظهرت بعد حكم منبتاح حيث إن مملكة إسرائيل قد دامت من ٩٣١ – ٩٣٠ ق . م . إلى ٧٢١ ق . م .

٤ – ذكر الكتب المقدسة لموت فرعون عند الخروج :

يشكل موت فرعون عند الخروج نقطة شديدة الأهمية فى روايات القرآن والتوراة . وهى تبرز من النصوص بمنتهى الوضوح . وفيما يخص التوراة فإن موت فرعون ليس مذكوراً فقط فى أسفار موسى الخمسة وإنما هو مذكور أيضاً فى مزامير داود : وقد بينا مراجع هذا فى الصفحات السابقة .

ومن الغريب كل الغرابة أن الكتاب المسيحيين يسكتون على حادثة موت هذا الفرعون . فالأب ديفو يدافع عن القضية القائلة بأن الخروج من مصر قد حدث فى الجزء الأول أو فى منتصف حكم رمسيس الثانى ، ولم يأخذ إطلاقاً بعين الاعتبار أن هذا الفرعون قد هلك عند المطاردة . وذلك يعنى – مهما كانت الفروض – أن الحدث لا يمكن أن يكون قد وقع إلا فى نهاية الحكم . وفى كتابه « تاريخ إسرائيل القديم » لا يبدو أن مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس يعطى أقل اهتمام للتناقض بين القضية التى يدافع عنها وبين معطيات سفرى التوراة .

---

(١) كما يشير الأب ب . كروايه R.P.B. Couroyer . الأستاذ بمدرسة الكتاب المقدس ، فى تعليقاته على ترجمة سفر الخروج Editions du Cerf 1968. ص ١٢ فإن كلمة إسرائيل مصحوبة بكلمة « شعب » التعريفية بدلاً من كلمة « بلد مثلما هو الحال بالنسبة لأسماء الأعلام الأخرى بهذا النصب » .

أما ب . مونتى فى كتابه « مصر والتوراة » يحدد زمن الخروج فى عصر منبتاح ولكنه لا ينبس بكلمة واحدة عن موت الفرعون الذى كان على رأس المطاردين .

هذا الموقف المذهل يتباين مع موقف اليهود : فمزمور داود رقم ١٣٦ الذى يحمد الله ، فى الآية ١٥ ، لأنه « ألقى بفرعون وجيشه فى بحر البوص » يذكر كثيراً فى طقوسهم . وهم يعرفون الاتفاق بين هذه الآية وفقرة الخروج (١٤ ، ٢٨ و ٢٩) التى تقول : « وارتدت المياه كما كانت وغطت مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذى كان قد دخل إلى البحر وراءهم ولم يبق منهم واحد . » وفى رأيهم أنه ليس هناك أدنى شك فى أن هذا الفرعون قد هلك مع جيوشه . إن نفس هذه النصوص موجودة فى كتب التوراة المسيحية .

ويستبعد المعلقون المسيحيون عن عمد ، وضد كل وضوح ، موت فرعون . ولكن ، أكثر من هذا ، يذكر البعض الإشارة التى جاءت فى القرآن داعين بذلك القراء إلى القيام بعملية تقريب غريبة . وهكذا نستطيع أن نقرأ فى ترجمة التوراة التى تمت تحت إشراف مدرسة الكتاب المقدس بالقدس[١] التعليق التالى للأب كوروايه R.P.B.Couroyer — وهو الأستاذ بهذه المدرسة — والذى يخص موت فرعون . يقول :

« يشير القرآن إليه (أى موت فرعون) (فى سورة يونس الآيات من ٩٠ إلى ٩٢) وعلى حسب التراث الشعبى فإن فرعون قد ابتلع بجيشه (وهذا مالا يقوله النص المقدس) [٢] وهو يسكن الآن قاع البحر ويحكم مملكة إنسان البحر أى عجول البحر [٣] . »

إن القارئ الذى لا يعرف محتوى القرآن ينشئ فى هذه الحالة ، وهذا طبيعى ، علاقة بين دعوى القرآن المناقضة لنص التوراة — فى رأى المعلق فقط — وبين هذه الخرافة المضحكة التى تنبع فيما يقال من أساطير شعبية ، والتى يشار إليها فى التعليق بعد الإشارة إلى القرآن .

إن واقع المقولة القرآنية فيما يختص بهذا الموضوع لا صلة له بما يوحى به هذا الكاتب :

---

(١) « الخروج L'Exode » ، ١٩٦٨ ص ٧٣

(٢) لا شك أن المقصود عند كاتب التعليق هو التوراة

(٣) فقط

فالآيات من ٩٠ إلى ٩٢ من سورة يونس (١٠) تقول بأن بنى إسرائيل قد عبروا فعلاً البحر حين كان فرعون وجيشه يطاردهم ، وبأن فرعون ، والبحر على وشك أن يطويه ، قد صاح : « آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . فأجاب الله : « آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ » .

ذلك كل ما تحتويه هذه السورة فيما يختص بموت فرعون . وليس فى هذه السورة وليس فى آية سورة أخرى شيء له علاقة بتلك الأوهام التى يبرزها المعلق على التوراة . إن النص القرآنى يقول ببساطة وبشكل واضح تماماً إن جسد فرعون قد أنقذ وتلك معطية رئيسية .

وفى العصر الذى وصل فيه القرآن للناس عن طريق محمد ﷺ ، كانت جثث كل الفراعنة الذين شك الناس فى العصر الحديث صواباً أو خطأ أن لهم علاقة بالخروج ، كانت مدفونة بمقابر وادى الملوك بطيبة على الضفة الأخرى للنيل أمام مدينة الأقصر الحالية . فى عصر محمد ﷺ كان كل شيء مجهولاً عن هذا الأمر ولم تكتشف هذه الجثث إلا فى نهاية القرن التاسع عشر . وكما يقول القرآن فقد أنقذ بدون هذا الفرعون . وأيًّا كان هذا الفرعون فهو الآن فى قاعة المومياءات الملكية فى المتحف المصرى بالقاهرة ويستطيع الزوار أن يروه . إذن فالواقع يختلف تماماً عن تلك الخرافة المضحكة التى ربطها الأب كورواييه خطأ بالقرآن .

٥ – مومياء الفرعون منبتاح :

فى ١٨٩٨ بوادى الملوك بطيبة اكتشف لوريت Loret مومياء منبتاح ابن رمسيس الثانى ، وكل شيء يسمح بالاعتقاد بأنه فرعون الخروج – ومن هناك نقلت المومياء إلى القاهرة ورفع إليوت سميث Elliot Smith عنها أربطتها فى ٨ يوليو ١٩٠٧ .

ويصف إليوت سميث فى كتابه The Royal Mummies (المومياء الملكية) (١٩١٢) بروتوكول هذه العملية وفحص الجثة . وفى ذلك الوقت كانت المحافظة على المومياء مرضية بالرغم من بعض التدهورات فى نقاط عدة . ومنذ هذا التاريخ والمومياء معروضة للزوار

بمتحف القاهرة ، مكشوفة الرأس والرقبة ، أما بقية الجسم فهو مغطى بقطعة من القماش لدرجة أنه حتى هذه الشهور الأخيرة لم يكن المتحف يملك صوراً فوتوغرافية عامة لجسم المومياء سوى تلك التى يحتوى عليها كتاب ا . سميث (١٩١٢) .

وفى يونيو ١٩٧٥ سمحت لى السلطات المصرية العليا بدراسة أجزاء جسم فرعون التى كانت مغطاة حتى ذلك الوقت كما سمحت لى بأخذ بعض الصور . وعندما أقيمت المقارنة بين حالة المومياء الحالية وما كانت عليه منذ أكثر من ٦٠ عاماً اتضح جلياً أن حالة المومياء قد تدهورت وأن هناك أجزاء منها قد اختفت . فقد عانت الأنسجة المحنطة الكثير على أيدى البشر بالنسبة لبعض الأجزاء وبسبب آفة الزمن بالنسبة لأجزاء أخرى .

وسبب هذا التدهور الطبيعى يتضح تماماً بتعدل ظروف الاحتفاظ بالمومياء منذ أن اكتشفت المومياء فى نهاية القرن التاسع عشر فى قبر بمدفن مدينة طيبة حيث كانت منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام . وهى معروضة الآن تحت واق زجاجى بسيط لا يفصلها بشكل تام عن الجو الخارجى ولا يمنع تلوثها بالجسميات الميكروبية ، كما أنها عرضة لفروق درجات الحرارة الجوية وغير محمية مما قد يصيبها بسبب الرطوبة الموسمية . لكل هذه الأسباب فالمومياء بعيدة كل البعد عن الظروف التى سمحت لها بأن تعبر ثلاثة آلاف سنة على وجه التقريب فى حمى من كل أسباب التدهور هذه . لقد فقدت حماية أربطتها وميزة المكوث بوسط مغلق فى قبر حيث درجة الحرارة أكثر استقراراً والهواء أقل رطوبة من جو القاهرة فى بعض فترات السنة . ولاشك أنها قد عانت فى مدافن طيبة نفسها من زيارات القوارض أو لصوص القبور، وذلك ، كما هو محتمل ، منذ زمن بعيد جداً ، وقد تسبب هؤلاء فى بعض الأضرار ، وبالرغم من ذلك فقد كانت الظروف ، فيما يبدو ، أكثر مواءمة من اليوم لمقاومة آفة الزمن .

وفى أثناء فحص هذه المومياء فى يونيو ١٩٧٥ بدأت ، بمبادرتى ، دراسات خاصة . فقد قام الطبيبان المليجى ورمسيس بدراسة طبية بالأشعة السينية . على حين قام الدكتور مصطفى المنيلاوى ، بفضل ثغرة فى جدار القفص الصدرى ، بدراسة جوف القفص الصدرى والبطن وقد حقق بذلك أول دراسة بالمنظار الداخلى Endoscopie على

مومياء . وقد سمح هذا برؤية وتصوير بعض التفاصيل الهامة جداً داخل الجسم نفسه . ومع الدراسة الميكروسكوبية لبعض أجزاء صغيرة وقعت تلقائياً من جسم المومياء ، وهى دراسة سيقوم بها بباريس البروفيسور مينو Mignot والدكتور دوريجون Durigon ، ستكتمل الدراسة الطبية الشرعية العامة التى سيقوم بها البروفيسور سيكالدى Ceccaldi . وإنه لما يؤسفنى حقاً أن نتائج هذه الأبحاث لم تكتمل فى اللحظة التى ينتهى فيها تحرير هذا الكتاب .

ولكن ما يمكن استنتاجه من هذه الدراسة هو ملاحظة آفات عظيمة عديدة مع ثغرة فى مادة الجسم – ربما كان بعض منها قاتلا – دون أن يكون ممكناً ، الآن ، القول بما إذا كان بعض منها قد حدث قبل أو بعد موت فرعون . فهذا الفرعون ، قد مات إما غريقاً على حسب روايات الكتب المقدسة ، وإما بسبب رضوض عنيفة جداً سبقت ابتلاع البحر له أو ربما للسببين معاً .

إن ربط كل هذه الآفات بالتدهورات التى تحدثنا عن أسبابها تجعل عسيراً الاحتفاظ جيداً فى المستقبل بهذا الجسم المحنط ما لم تتخذ إجراءات الإنقاذ اللازمة فى مستقبل قريب جداً . وسيكون من شأن هذه الإجراءات أنها ستجنبنا فقدان الشاهد المادى الوحيد الباقى حتى يومنا . . . الشاهد على موت فرعون الخروج وعلى النجاة التى أرادها الله لجسده .

وإنه لما يرجى دائماً أن يعمل الإنسان على الاحتفاظ بشواهد على تاريخه ، ولكن المعنى به هنا هو شىء أكثر من هذا : إنها شهادة مادية فى جسد محنط على من عرف موسى وعارض طلباته وطارده فى هروبه ومات فى أثناء هذه المطاردة . وأنقذ الله جثته من الهلاك التام ليصبح آية للناس كما هو مكتوب فى القرآن [1] .

أى بيان رائع لآيات القرآن ذلك الذى يخص بدن فرعون والذى تهبه قاعة المومياوات الملكية بدار الآثار بالقاهرة لكل من يبحث فى معطيات المكتشفات الحديثة عن أدلة على صحة الكتب المقدسة !

---

(١) كانت مومياء رمسيس الثانى ، وهى شاهد آخر على تاريخ موسى ، محلا لدراسة مماثلة لتلك التى أجريت على مومياء منبتاح ، وهى تحتاج لنفس إجراءات المحافظة .